

دلالة علامة الأثر

الدكتور ناصر بلخيتير

جامعة تلمسان

الملخص:

يعالج هذا المقال دلالة علامة الأثر، مرتكزا على علم القيافة الذي اشتهر به بعض حُذاق العرب و نبهائهم، هذا العلم الذي استندوا إليه لإلحاق الأنساب انطلاقا من هياكل الأشخاص و صفاتهم أو لتعقب الضالين و السراق و الحيوانات عن طريق ملاحظة الآثار في الرمل. و نجد أن بعض قصص القيافة تستوفي شروط العلامة غير اللسانية، من حيث توفرها على عنصري القصيدة و طريق حصول الدلالة.

مقدمة:

تختلف أنظمة العلامات الدالة باختلاف الحواس، فهي إما سمعية و بصرية و مَسِيَّة و شَمِيَّة و مذاقية، و المجتمعات الإنسانية- على اختلاف مواقعها الجغرافية و انتماءاتها العرقية و مشاربها الثقافية و الدينية- اتخذت نظما و لغات مختلفة تتفاوت فيما بينها من حيث نسبة التداول و الاستعمال، و لكن كلها تُسهم في عملية التواصل الاجتماعي بين الأفراد و الجماعات. و العلم الذي يُعنى بالعلامات و أدائها في المجتمعات المختلفة و يتخذها مجالا للدراسة هو ما يطلق عليه دي سوسير مصطلح (السيمولوجيا)، و هو علمٌ "لا يتناول

مجلة أنثروبولوجية الأديان العدد الرابع والعشرون 24 جانفي 2019

العلامة في حد ذاتها بل يتناولها من حيث مكوناتها و وظائفها القوانين التي تخضع لها" (1)، و يرجع الفضل لهذا الرجل الذي "حاول أن يثير الانتباه إلى بلورة نظرية إنسانية متكاملة تختص بالبحث في أنواع العلامات" (2)، و لا زالت إسهامات العلماء بعده تُثمر "بجهود طيبة في سبيل تكوين ذلك العلم و إرساء قواعده" (3) و بالنظر إلى الموروث العلمي العربي فإننا نلاحظ أنه في مجمله كان يدور في فلك القرآن الكريم بأبعاده الاجتماعية و العقائدية و العلمية و اللسانية، حتى إن الحديث فيه عن العلامة باعتبار دلالتها تدبرا و تفكرا ظل قائما، من ذلك قوله تعالى: "وَ عَلَامَاتٍ وَ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ" (4)، و قوله كذلك: "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ" (5) و قوله جل جلاله: "فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ" (6) و من هنا فإن الغرض من ذكر العلامة في هذه الآيات هو تفسير الدلالة الكونية و الروحية بقوة الاستدلال عن غائبيها، و هو ما أشار إليه القاضي عبد الجبار في معرض حديثه عن حقيقة الأسماء فقال: "إن من حق الأسماء أَنْ يُعْلَمَ معناها في الشاهد ثم يُنَبِّئَ عليه الغائب" (7)، و هذا ما يدل على أن الفكر العربي تعامل مع العلامة بوعي متناه، معتبرا إياها حقيقة حسية حاضرة مجردة غائبة.

و مفهوم العلامة عند الدارسين العرب القدامى " تعني كون الشيء بحالة يلزم من العلم به العلم بشيء آخر" (8)، كما أنهم ميزوا بين العلامة و الدلالة على نحو ما فعل أبو هلال العسكري فقال: "إن الدلالة على الشيء ما يمكن كل ناظر فيها أن يستدل بها عليه، كالعالم لما كان دلالة على الخالق كان دالا عليه لكل مستدل به، و علامة الشيء ما يُعرف به المُعْلَم، و مَنْ شَارَكَهُ في معرفته دون كل واحد كالحَجَر يجعله علامة لدفين يدفنه، فيكون دليلا لك دون غيرك، و يجوز أَنْ تُزِيلَ علامة الشيء بينك و بين صاحبك فَتَخْرُجَ مِنْ أَنْ تكون علامة له، و لا يجوز أَنْ تَخْرُجَ الدلالةُ على الشيء مِنْ أَنْ تكون دلالة عليه، فالعلامة تكون بالوضع و الدلالة بالاقتضاء" (9)

و يتضح من كلام أبي هلال العسكري أنه يلفت الانتباه إلى مسألة القصديّة في العلامة التي يدور حولها جدل كبير في السيميائيات المعاصرة، إذ يركز بعض الدارسين منهم مارتيني و مونان على الوظيفة التواصلية للعلامة، في حين تلتفت جماعة أخرى منهم رولان بارت إلى الجانب التأويلي للعلامة باعتبار قابليتها للتأويل الدلالي لدى المتلقي. و في الحضارة العربية الممتدة في أحقاب التاريخ حضور راسخ لعلم العلامات إذ مارسه الناس في حياتهم و جعلوه عوناً في اتصالاتهم، مما جعل الدارسين الأقدمين يعكفون على النظام التواصلية في عمومها و يبرزون أهميته في الحياة الإنسانية على حد ما ذهب إليه ابن سينا فقال: "لما كانت الطبيعة الإنسانية مُتَحَاجَةً إلى المجاورة لاضطرارها إلى المشاركة و المجاورة انْبَعَثَتْ إلى اختراع شيء يُتَوَصَّلُ به إلى ذلك (...). فمالَت الطبيعة إلى استعمال الصوت و وُفِّقَتْ مِنْ عند الخالق بآلات تقطيع الحروف، و تركيبها معا ليدل بها على ما في النفس من أثر، ثم وقع اضطرارٌ ثانٍ إلى إعلام الغائبين من الموجودين في الزمان أو المستقبلين، إعلاماً بتدوين ما عُلم، فاحتيج إلى ضرب آخر من الإعلام غير النطق فاخترعت أشكال الكتابة." (10)

و هكذا يحقق النظام التواصلية للإنسان طبعه الاجتماعي، و تكون العلامة بميزتها الدلالية و الإبلاغية العنصر الأساسي المكون لهذا النظام، أو هي عون قوي للمتكلم على حد تعبير الغزالي حينما قال: "لا متكلم إلا و هو محتاج إلى نصب علامة لتعريف ما في ضميره" (11) و يتفق السيميائيون (المشتغلون على دلالة الرموز) على أن المجال الدلالي للعلامة لا يمكن حصره في علاقة ضيقة بين الدال و المدلول، بل إن هذا المجال يتسم بحركية متجددة تحكمه ظروف الوسط الثقافي للجماعة اللغوية، و بالتالي فإن القصد الإبلاغي و الدلالي للعلامة يتغير بحكم تغير هذه الظروف.

تعريف

القيافة

جاء لفظ القيافة في المعاجم من قولهم "فَقَاهُ فُقُوهًا وَفُقُوهًا وَفُقُوهًا وَتَقَفَاهُ: تَبِعَهُ. اللَّيْثُ: الْقَفُوهُ مصدر قولك قَفَا يَقْفُو فُقُوهًا وهو أن يتبع الشيء" (12)، و قال الأخفش: وَ لَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ، أي لا تَتَّبِعْ مَا لَا تَعْلَمُ (13)، و القَائِفُ و الْقَيَّافُ مُتَّبِعُ الْآثَارِ، و هو الذي الرجل بأبيه و أخيه، و جمعه القافة، و قول النبي- صلى الله عليه و سلم: "أنا محمد و أحمد و الْمُقَفَّى" (14) قيل ليس بعده نبي، و قيل المتتبع آثار مَنْ قَبْلِي، فهو الْقَائِفُ، كما تدور في هذا الفضاء الذي هو الإِتِّبَاعُ بعض الآيات القرآنية و منها قوله تعالى: "و لَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ" (15) و قوله سبحانه أيضا: "ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَ قَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَ آتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ" (16) و في التعريف الاصطلاحي الذي أعطاه العلماء للفظ القيافة" هي اعتبار الاشتباه للإلحاق بالأنساب" (17) كما ذهب بعضهم إلى القول إنها "هي الاستدلال بمهيئة الإنسان و شكله على نسبه" (18)، و كلا التعريفين متعلق بطريقة إلحاق الشخص بنسبه عن طريق تَلَكُّس أوجه الشبه في الملمح الظاهر و الهيئة و الأخلاق و الفضائل و الرذائل مع أشخاص آخرين، و هذا الضرب من القيافة خاص بالبشر. و هناك ضربٌ ثانٍ من القيافة يختص فيه أصحابه بتتبع الأثر مثل "آثار أقدام الإنسان، و أحفاف الإبل و حوافر الخيل، و قد يُفَرِّقُونَ بَيْنَ أَثَرِ الشَّابِّ وَ الشَّيْخِ، وَ قَدَمِ الرَّجُلِ وَ الْمَرْأَةِ ثُمَّ الْبَنَرِ وَ الثَّيِّبِ". (19) و لقد كان لبعض فطناء العرب و حذاقهم معرفة كبيرة بالقيافة و الزجر و العيافة، حتى إن المسعودي قال إنَّ "هذه المعاني من خواص ما للعرب، و ما تَفَرَّدَتْ بِهِ دُونَ سَائِرِ الْأُمَمِ فِي الْأَغْلَبِ مِنْهَا" (20)، إذ فَرَضَتْ عَلَيْهِمْ بَيْعَتُهُمْ الْقَاسِيَةَ تَعْلَمُ هَذِهِ الْمَعَارِفُ "لِيَتَعَقَّبُوا مَنْ يَضِلُّ مِنْهُمْ فِي الصَّحَرَاءِ وَ لِيَتَعَقَّبُوا الْأَعْدَاءَ الَّذِينَ يُغَيِّرُونَ عَلَيْهِمْ وَ يَنْهَبُونَ أَمْوَالَهُمْ وَ نِسَاءَهُمْ فِي غَيْبَتِهِمْ عَنْ أَحْيَائِهِمْ" (21) و في وقت لاحق جَوَّزَ بعض الفقهاء العمل

بالعلامات و الإشارات على الشيء، إذ انطلقوا من ظاهر الشيء لإثبات غائبه في بعض

مجلة أنثروبولوجية الأديان العدد الرابع والعشرون 24 جانفي 2019

القضايا التي اعترضت لهم، و لا خلاف عندهم في الحكم بها، فهي في مقام البينة التي أمر الشارع الأخذ بها في تثبيت الأحكام، وكان مرجعهم في ذلك عمل النبي صلى الله عليه و سلم مع جابر بن عبد الله حين أراد السفر إلى خيبر فأوصاه النبي بقوله: " إذا رأيت وكيلي فَخُذْ مِنْهُ خَمْسَةَ عَشْرٍ وَسَقَا، فإذا طلب منك آية فَضَعْ يَدَكَ عَلَى تَرْفُوتِهِ " (22) و إن كان بعض قضاة المالكية توسعوا في الحكم بالفراسة جريا على طريق إياس بن معاوية (23)، فإن الاعتبار فيمن يعمل بها أن يكون ذا تقوى و صلاح حتى لا تضيع حقوق الناس، كما لا يجوز الأخذ بها إذا حضرت الحجة و البينة المادية عند المدعي لِحَقِّ.

تحليل بعض قصص القيافة:

القصة الأولى:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل عليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم وهو مسرور، فقال : يا عائشة! ألم تري أن مجززا المدلجي دخل فرأى أسامة وزيدا، وعليهما قطيفة، قد غطيا رؤوسهما وبدت أقدامهما، فقال: إن هذه الأقدام بعضها من بعض" (24)

التحليل:

نوع العلامة	الملحق به	الملحق	موضوع المشاركة	طبيعة العلاقة بين الملحق و الملحق به	طريق حصول الدلالة
غير لسانية	زيد	أسامة	النسب و	التشابه في	الحدس و

مجلة أنثروبولوجية الأويان العدد الرابع والعشرون 24 جانفي 2019

القيافة البشري		الولادة و	الأقدام	التخمين
----------------	--	-----------	---------	---------

القصة الثانية:

انطلق أحد البدو قديما في صحراء قاحلة يبحث عن جماله الضائعة، وهو في رحلة البحث وجد أثرا للناقة، وتمعن النظر في ذلك الأثر، ثم قال: هذه ناقة بعين واحدة مقطوعة الذيل و هي تحمل امرأة حاملا أو شيخا مُسنًا. وبعد فترة من الطريق وجد رجلا يبحث عن ناقة و امرأة، وقام البدوي بإكمال صفات الناقة و ما تحمل، فاستغرب الرجل، و طلب منه الذهاب إلى مضاربه. و هناك طلب من رجال العشيرة الإمساك به ،ظنا منه بأنه هو سارق الناقة. و لكنه قال بأن الناقة لم تُسرق فهي متجهة غربا بقيادة امرأة حامل. (25)

التحليل:

نوع العلامة	المُلتحقُ به	المُلتحقُ	موضوع المشاركة	طبيعة العلاقة بين الملحق و الملحق به	طريق حصول الدلالة
غير لسانية (قيافة الأثر)	الناقة عوراء لا ترى إلا بعين واحدة	وجود العُشب من جانب واحد في وضعية	النقص و العيب في الهيئة و الخلق	السببية، أي أن الملحق سبب في الملحق به	الملاحظة الدقيقة و الربط بين الأشياء

مجلة أنثروبولوجية الأويان العدد الرابع والعشرون 24 جانفي 2019

			جلوس الناقة		
غير لسانية (قيافة الأثر)	ذيل الناقة مقطوع	عدم تفرُّق بَعْرِهَا	النقص و العيب في الهيئة و الخَلْق	السببية، أي أن الملحق سبب في الملحق به	الملاحظة الدقيقة و الربط بين الأشياء
غير لسانية (قيافة الأثر)	الناقة تمتطيها امرأة حامل أو رجل شيخ	يد مغروسة في الرمل	ثقل المحمول على الناقة	السببية، أي أن الملحق سبب في الملحق به	الملاحظة الدقيقة و الربط بين الأشياء
غير لسانية (قيافة الأثر)	استبعاد السرقه	وجود الناقة منفردة	الارتباط المنطقي	السببية، أي أن الملحق سبب في الملحق به	الملاحظة الدقيقة و الربط بين الأشياء

مجلة أنثروبولوجية الأويان العدد الرابع والعشرون 24 جانفي 2019

و الذي نستخلصه من هذه الدراسة هو:

- إن المجال الدلالي للعلامة لا يمكن حصره في علاقة ضيقة بين الدال و المدلول، بل إن هذا المجال يتسم بحركية متجددة تحكمه ظروف الوسط الثقافي للجماعة اللغوية.
- إن القيافة ضربان؛ ضرب خاص بالبشر و يتعلق بطريقة إلحاق الشخص بنسبه عن طريق تَكْمُس أوجه الشبه في الملمح الظاهر و الهيئة و الأخلاق و الفضائل و الرذائل مع أشخاص آخرين، و ضرب ثان يختص فيه أصحابه بتتبع الأثر مثل آثار أقدام الإنسان، و أحفاف الإبل و حوافر الخيل.
- جَوَّزَ بعض الفقهاء العمل بالعلامات و الإمارات على الشيء، إذ انطلقوا من ظاهر الشيء لإثبات غائبه في بعض القضايا التي اعترضت لهم، و لا خلاف عندهم في الحكم بها، فهي في مقام البينة التي أمر الشارع الأخذ بها في تثبيت الأحكام.
- تستوفي بعض قصص القيافة شروط العلامة غير اللسانية، من حيث توفرها على عنصري القصدية و طريق حصول الدلالة.

الهوامش:

1- محمود السعران: مقدمة للقارئ العربي: ص 66

2- نفسه: ص 66

3- نفسه: ص 68

4- النحل: 16

5- الرعد: 3

مجلة أنثروبولوجية الأديان العدد الرابع والعشرون 24 جانفي 2019

- 6- الحشر: 2
- 7- القاضي عبد الجبار: المغني في أبواب التوحيد: 166/4
- 8- التهانوي: كشف الاصطلاحات و الفنون: 787/1
- 9- أبو هلال العسكري: الفروق اللغوية: ص54
- 10- ابن سينا: الشفاء: ص21
- 11- الغزالي: المستصفى من علم الأصول: ج3/29
- 12- ابن منظور: لسان العرب: مادة (قفا)
- 13- الأزهري: تهذيب اللغة: باب القاف و الفاء
- 14- حديث رواه نافع بن جبير بن مطعم عن أبيه، الدر المنظم في مولد النبي المعظم ص358
- 15- الإسراء: 36
- 16- الحديد: 27
- 17- ابن دقيق العيد: إحكام الأحكام، شرح عمدة الأحكام: 276/4
- 18- الألوسي البغدادي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب: 261/3-262
- 19- رضوان محمد حسين البحار: الصحابي الشاعر حميد بن ثور الهلالي، حياته و شعره: ص66

مجلة أنثروبولوجية الأديان العدد الرابع والعشرون 24 جانفي 2019

- 20- المسعودي: مروج الذهب: ج2/128
- 21- د/شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي: ج1/85
- 22- سنن أبي داود: 3632 ؛ الوسق: وحدة قياس الكيل و مقداره ستون صاعا؛ و الترقوت: أعلى الصدر
- 23- هذا ما ذكره السيوطي في " الإكليل في معرفة التنزيل " ص137
- 24- صحيح البخاري، المطبعة السلفية، 65/12
- 25- لم أستطع توثيق هذه القصة رغم تردددها و شهرتها